الفصل 34

الحوار... الحوار... والديمقراطية

سألني أحد الأصدقاء: ما الذي يميزك أكثر؟ أهي إنجازاتك، أم مأساتك العلنية الموجعة؟

توجد قصة أُحبُّها كثيرًا تتحدث عن امرأة دخلت الجنة وهي متعبة ومنهكة، بعد رحلة طويلة من المشكلات وخيبات الأمل في الحياة، أخذها الملاك إلى شباك ذي زجاج مزخرف، ثم قال لها: «انظري، هذه شظايا حياتك التي تكسرت، كنت تعتقدين أنَّ روحك هشَّة مثل الزجاج، لقد اعتقدت أنَّك فقدت هذه الأجزاء المكسورة إلى الأبد، ولكن وكما ترين، فقد احتفظنا بها لك، لقد أخذنا هذه الأجزاء، وصنعنا منها صورة لحياتك بألوان الزجاج، انظري كيف تُشكِّل الألوان هذه الفسيفساء التي تُصوِّر قصة حياتك، هذه الشظايا المعتمة كلها جاءت من زمن المعاناة، ولكن انظري كيف تُحدِث ظلالاً حول الألوان الحمراء البراقة، والخضراء، والزرقاء من الأيام السعيدة في حياتك؛ لهذا فإنَّ السواد يُبرِز لحظات الفرح في حياتك، وهي في مجموعها تُشكِّل لوحة جميلة».

أعتقد أنَّها قصة جميلة، وأنا أُحبها كثيرًا، وأرويها دائمًا؛ لأنَّني أعتقد أنَّه مهما كان الثمن الذي دفعته لرحلة حياتي فإنَّه يستحق هذا العناء، لقد كانت معركةً قاسيةً؛ لأنَّ مَن فعلوا بي ذلك حاولوا تدمير ثقتي، وإيماني، وشعوري بهويتي، واعتزازي بإنجازاتي.

وبالرغم من كل ما فعلوه، فإنَّني أعتقد أنَّهم فشلوا في تحقيق هدفهم، وعزائي هو أنَّني لم أندم قط على أفعالي أو خياراتي، ولم أتخلَّ عن معتقداتي السياسية أو الروحانية، إلا أنَّني

أعتقد - في الوقت نفسه- أنَّ خبرتي تبعث بإشارات تحذير مفادها أنَّ ديمقراطيتنا وحرياتنا ليست محميةً كما يعتقد الشعب الأمريكي.

لقد كان الهجوم عليَّ غير أخلاقي من البداية حتى النهاية، ولم يوقفه أي شيء، أو يحد من زخمه، ولولا ذلك القاضي الذكي لكانوا دمروا حياتي كلها، وهذا ما يمكن أن يفعله قانون الباتريوت بأي مواطن أمريكي له رأي مخالف.

فما الذي كان الجمهوريون يُخفونه وجعلهم يُسكتونني طوال خمس سنوات بتهمة كاذبة؟

أعتقد أنَّ الجواب مهم ومُبشِّر بمستقبل أفضل؛ لقد أراد الجمهوريون أن يتستروا على نجاح الحوار (قبل الحرب على العراق) الذي انتهى بموافقة العراق على التعاون في ملف مكافحة الإرهاب، والتحقيقات الخاصة بهجمات الحادي عشر من سبتمبر، وقد أثبتت جهودي أنَّ الدبلوماسية يمكن أن تُحقِّق نتائج كانت ستُفضي إلى تجنب الحرب، لكنَّ الإدارة الأمريكية أرادت إقناع العالم أنَّ الحرب هي الحل الوحيد؛ لقد كانوا مخطئين ولا شك؛ فالحوار والتواصل أوجد فرصة قوية للسلام.

وأعتقد أنَّ من المهم - بالنسبة إلينا جميعًا- الاعتراف، خاصةً في ضوء الصراعات والنزاعات المسلحة في عموم الشرق الأوسط، بوجود ما يُنذِر بأنَّ هذا العالم قد أصبح على شفير الهاوية، أو أنَّه يوجد مَن يدفع إليها.

ولكن، ماذا عنا؟

بالنسبة إليَّ، أعتقد أنَّنا نتجاهل وسيلة قوية من شأنها وقف تلك الصراعات؛ وهي التواصل.

إنَّ الحوار والمشاركة يُوفِّران مخرجًا من هذا الوضع، وفي الحقيقة، فإنَّ هذا ليس حُلمًا أو أنموذجًا مثاليًّا، وإنَّما هو حقيقة ممكنة كما ثبت لي في اتصالاتي مع ليبيا والعراق؛ إذ استطعت الدخول بهدوء في إحدى السفارات، والجلوس إلى جانب الدبلوماسيين، وتناول كوب من الشاي، والانخراط في حديث ودي، ومن هذا العمل البسيط استطعنا فتح قناة خلفية لمناقشة القضايا الرئيسة التي كانت تعرقل إقامة علاقات طبيعية بين الجانبين.

وهذا ما حدث في قضية لوكيربي، وفي موافقة ليبيا على وقف إيواء الإرهابيين، والتخلي عن فكرة التسلح النووي.

وحدث الأمر نفسه في العراق؛ إذ نجحت الاتصالات السرية في ضمان تحقيق الأهداف الأمريكية جميعها [618]. وعندما بدأ العالم يرفض استمرار أزمة العراق الإنسانية، وعندما ظهرت بوادر تشير إلى انهيار العقوبات، وضعت الاستخبارات الأمريكية مخططًا طموحًا لتأمين المصالح الأمريكية في مرحلة ما بعد الحرب، وقد نجحنا في ذلك لدرجة كانت ستدهش روسيا وفرنسا والصين؛ الأعضاء في مجلس الأمن.

وقد أَجبرت وكالة الاستخبارات الأمريكية العراق عن طريق المفاوضات المكثفة من شهر نوفمبر عام 2000م إلى شهر مارس عام 2002م، على قبول عودة مفتشي الأسلحة من دون شروط، بعدما وافق العراق على أدق معايير الالتزام والشفافية التي لم يشهدها التاريخ من قبلُ.

لم يُظهر العراق أي مقاومة، وإنَّما كان مستعدًّا لإثبات حُسن نواياه تجاه المطالب الأمريكية المعلنة جميعًا. والحقيقة أنَّ العراق شجع الولايات المتحدة على دراسة احتمالات السوق الكبيرة في مختلف القطاعات، وأعلن عن استعداده للتحالف مع الولايات المتحدة، والدخول في شراكة تجارية معها بعد انتهاء العقوبات.

كان الدبلوماسيون العراقيون يُذكِّروننـي دائمًا بأنَّ العراق كان حليفًا للولايات المتحدة في مواجهة إيران، وأنَّ هذه الصداقة يمكن تجديدها.

وكانت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية قد وضعت العراق أمام اختبار مهم؛ هو طلب حصة الأسد للشركات الأمريكية في عقود إعادة الإعمار، وقد وعد العراق بمنح هذه الشركات حصتها في السوق مثلما كانت قبل حرب الخليج الأُولى، وكذلك منحها الأفضلية في عقود الاتصالات، والرعاية الصحية، وتجهيز المستشفيات، والأدوية، وبناء المصانع، والنقل، ووعد العراق أيضًا بشراء مليون سيارة أمريكية الصنع سنويًّا على مدار عشر سنوات.

أما المشروعات النفطية فكانت مضمونةً أيضًا؛ إذ وعد العراق بدءًا بشهر نوفمبر عام 2000م بالسماح للشركات الأمريكية بالمشاركة في امتيازات التنقيب عن النفط وإنتاجه،

ومـن النجاحـات الكبـيرة التي حققتها المفاوضات السـرية ضمان مشـاركة العـراق في الحرب علـى الإرهـاب، والموافقـة على وجود فريق مـن مكتب التحقيقات الفيـدرالي في العراق، ومنحه صلاحيـات بخصوص إجراء التحقيقات، ومقابلة الشـهود، واعتقال المشـتبه بهم، يضاف إلى ذلك أنَّ العراق وعد بتسليم وثائق مصرفية تكشف مسار تنقُّل أموال الشبكات الإرهابية.

وأخـيرًا، وفي رحلتـي إلـى بغداد في شـهر مارس عـام 2002م، اسـتطعت زرع مصدر داخل المخابرات العراقية كان مستعدًّا للعمل ضابطَ اتصالٍ سريًّا مع مكتب التحقيقات الفيدرالي أو الإنتربـول، وخاطـر بحياته مـن أجل ذلك، كان هذا إنجازًا مذهلًا، لكـنَّ وزارة العدل عاقبتني عليه.

توافـرت أيضًـا فرصـة لتحقيـق إصلاحات ديمقراطية رئيسـة في العراق، وهـذا ما اقترحه المسؤولون العراقيون أنفسهم، وقدَّموا خطة للتطبيق أثارت إعجابي واهتمامي.

ولا أتصور ما الذي يمكن للولايات المتحدة وأوروبا أن تُحقِّقه أكثر من ذلك، من دون حشـد جنـدي واحـد لاحتـلال بغداد، أو إطلاق صـاروخ واحد لتدمير البنية التحتيـة في ذلك البلد، لو حدث ذلك ما ماتت أي أُم أو أي طفل في العراق، أو أي جندي أمريكي.

لقـد وافقـت على العمل في الوسـاطة السـرية؛ لأنَّني كرهـت المعاناة التي سـببتها العقوبات للشعب العراقي، ولأنَّني آمنت بأنَّ العالم سيكون أفضل من دونها.

كانت هذه الحرب باهظة الثمن؛ فقد غرق العراق في مسـتنقع الطائفية، وكشـفت وحشـية الاحتـلال عن زيف ادعاءات التحرير، وسـوف تنشـأ أجيال عراقية علـى كره الولايات المتحدة، لقد خسرت الولايات المتحدة حليفًا كبيرًا في الشرق الأوسط، في حين كسبت إيران هذا الشريك والجار القوي.

طوال هذه المساعي كلها أبقى فريقنا الاتصالات سريةً وبعيدةً عن وسائل الإعلام، وحققنا الأهـداف جميعهـا التـي ضمنـت المصالـح الأمريكية في مجالات واسـعة، لكنَّ المعسـكر المنادي بالحرب أبقى على التهم المُوجَّهة إليَّ طوال خمس سـنوات، ولم يتورع عن اتباع كل ما من شأنه أن يخفي الحقائق عن الشـعب الأمريكي، وكل ما فعله هو تلك التصريحات الاسـتعراضية عن سياسـة الأمـن القومـي التي لم تُحقِّق شـيئًا، لقـد كان مـن مصلحـة الإدارة الأمريكية الادعاء

بأنَّ نظام صدام حسين كان يدعم الإرهابيين في الشرق الأوسط، بالرغم من علمها أنَّه كان يلاحقهم ويضطهدهم.

لماذا الحقيقة مهمة اليوم؟

نظرًا إلى الوضع المتشائم الذي يواجهه العالم اليوم؛ أعتقد أنَّه يتعيَّن على الأمريكيين والمجتمع الدولي إدراك ما يمكن تحقيقه عن طريق الحوار.

وبالرغم من أنَّ النزاع مع العراق بدا صعبًا، فإنَّ الأمل في حله ظل حيًّا حتى النهاية.

كانت العقبة الرئيسة أمام طريق السلام في العراق، هي الرغبة في الحرب، والاعتقاد السائد بأنَّ الدبلوماسية لم تُحقِّق أي نتائج؛ ولهذا فهي مضيعة للوقت.

كانت هذه العقلية هي التي عرقلت سبل التوصل إلى اتفاق سلام، وهي عقلية قاصرة يتعيَّن تغييرها؛ لأنَّ الحوار - خلافًا لما يعتقده الناس- لم يفشل، وهذا ثابت من خبرتي وتجربتي مع العراق وليبيا.

أعتقد أنَّه توجد أربعة شروط ضرورية لنجاح الحوار، هي:

1. شجاعة القيادة في مواجهة المشكلات مباشرةً، والعمل بعيدًا عن العمل الدعائي.
2. الالتزام بالبحث عن الحلول حتى النهاية، وعدم التراجع عند أول عقبة؛ فأنا شخصيًّا التقيت بالدبلوماسيين الليبيين والعراقيين (300) مرَّة تقريبًا. صحيح أنَّ المفاوضات استغرقت وقتًا أطول مما كان متوقعًا، لكنَّنا حققنا أكثر مما أردنا تحقيقه في البداية.
3. وجوب بدء الحوار بصورة سرية في البداية؛ لأنَّ ذلك هو أفضل طريقة لاستكشاف الخيارات الإبداعية.
4. احترام الفروق الثقافية والمعتقدات الدينية، ومعاملة شعوب الدول الأخرى بكرامة، وجعلهم شركاء في التغيير.

كان هذا هو جوهر المنحى الذي استخدمته، وأُؤكِّد لكم أنَّنا أنجزنا أكثر مما كنا نهدف إليه؛ ففي حالة ليبيا أدَّت المحادثات مع الدبلوماسيين - التي بدأت عام 1995م- إلى كسر

الجمود في قضية لوكيربي، وتوقفت ليبيا عن دعم الإرهاب، وتخلَّت عن برنامج تطوير أسلحة الدمار الشامل، وزادت من تعاونها الاقتصادي مع أوروبا.

وقد أظهرنا طوال هذه المحادثات احترامنا لهوية ليبيا الإسلامية، وما كنا لنُحقِّق هذه الإنجازات كلها من دون الحوار.

وأخيرًا، يجب على الأمم المتحدة – من أجل السلام العالمي– أن تمارس دورها في رعاية الحوارات وحل الأزمات، وهذا ما لم تفعله في حالة العراق وليبيا؛ إذ لم تتدخل إلا بعدما توصلنا إلى إطار عمل لحل النزاع، أو بعدما وافقت ليبيا على محكمة لوكيربي، ووافق العراق على استئناف عملية التفتيش عن الأسلحة.

وللحقيقة، فإنَّ وكالة الاستخبارات الأمريكية لم تكن ترغب في أي دور للأمم المتحدة في الحالة العراقية؛ ليتسنى للولايات المتحدة التحكم في الوضع على هواها. وللحقيقة أيضًا، فإنَّ الأمم المتحدة لم تُبدِ أي رغبة للمشاركة في حل النزاع مع العراق، وكانت سعيدةً بالبقاء بعيدًا، ولم تمارس أي دور قيادي.

أما الاستثناء فهو مشاركة ماليزيا بشخص سفيرها حاسمي آغام في المفاوضات بصورة غير مباشرة، وبذل سوريا جهودًا تستحق الثناء في محاولةٍ لتجنب الحرب.

إنَّ هذا النجاح يحمل أملًا لحل النزاعات مستقبلًا، ويتعيَّن على الشعب الأمريكي والمجتمع الدولي إدراك أنَّ الحوار والقليل من الدبلوماسية يمكن أن يُفضيا إلى نتائج فاعلة يُعتمد عليها، وأنا أُؤمن بشدة أنَّ الديمقراطية تساعد الشعوب على طرح أفكارها لحل المشكلات بحرية. وفي المقابل، فإنَّ علينا أن نولي الحقوق المدنية أهميةً خاصةً، وأن لا نسمح للسياسيين في واشنطن بالتلاعب بها.

لقد تأكد لي طوال هذا الكابوس الذي سببه قانون الباتريوت أنَّه من غير المسموح به إرسال الجنود الأمريكيين إلى أفغانستان والعراق ليموتوا ويُقتلوا باسم الديمقراطية، في الوقت الذي تُقيَّد فيه الديمقراطية داخل الولايات المتحدة. لقد كانت جريمتي هي ممارسة حرية التعبير، وانتقاد سياسة الحكومة، وحتى لو كنت مخطئة في تحذيراتي بخصوص نتائج الحرب على

العـراق وهجمات الحادي عشـر من سـبتمبر، فـإنَّ هذا لا يعني حرماني مـن حرية التعبير عن رأيي.

ومما يُؤسَف له أنَّ المعسكر المعادي كان يملك السُّلْطة، وأراد إفهامي أن لا حول لي ولا قوة، وأنَّني مجرد رقم ضِمْن الشعب الأمريكي الذي لا يحق له مساءلتهم؛ لأنَّنا اخترناهم ليحكموا، ويتخذوا القرارات باسمنا.

والأسوأ من هذا كله أنَّ الكونغرس أقر قانون الباتريوت؛ لمعاقبتنا وإسكاتنا بتلفيق اتهامات سرية، أو السجن من دون محاكمة، ومصادرة حقوقنا الدستورية.

لذلك، يتعيَّن على الشعب الأمريكي أن يستيقظ، وأن يدرك أنَّه إذا كان عهد جورج بوش قد انتهى، فإنَّ أتباعه لا يزالون في السُّلْطة، وقد تعلموا كيف يستخدمون قانون الباتريوت بفاعلية ضد المواطن الأمريكي.

إنَّ مـا حـدث لي سـيتكرر باسـتمرار، وهم سـيزدادون جـرأةً وشـرًّا إلى أن يطالب الشـعب الأمريكي بإلغاء هذا القانون، وإذا كنتم لا تصدقونني فعليكم أن تتذكَّروا أنَّ الشرطة الفيدرالية أخضعـت للمراقبة المطالبين بوقف الاحترار العالمي؛ لأنَّهم إرهابيون بحسـب قانون الباتريوت، ولم يسـتثنِ القانون معارضي الحرب، ومنظمة العفو الدولية، وحتى نشـطاء حماية الحيوانات. وهؤلاء جميعًا يُعَدون تهديدًا أمنيًّا.

وقد حرصت الشرطة على مراقبة نشاط هؤلاء الأشخاص، والتنصت على هواتفهم.

إنَّ هـذا كلـه يجعلني أسـأل: لماذا فقدنا إيماننا بقيم الحريـة؟ لأنَّ هذا هو ما يحدث اليوم، لقد أصبحنا نخشى الحرية.

وإذا لم نعمـل علـى إلغاء هذا القانون فإنَّ كثيرين سـيتعرضون للأذى؛ لذلك يجب علينا أن نُجبر قادتنا على إثبات وفائهم للديمقراطية بالتبرؤ من هذا القانون؛ إنَّه قانون خيانة لا قانون وطنية.

من جانبي، لا أشعر بالندم على ما عانيته في سبيل الدفاع عن قيمي؛ فقد دافعت عما أُحِب، ولن أُغيِّر موقفي.

وهـا أنـا ذا اليوم أعيش في تاكوما بـارك، وأعمل على إنقـاذ الحيوانات الضالـة، وما تزال شجرة الصفصاف الباكي تنمو في ساحة البيت الأمامية غير عابئة بهذا العالم المضطرب.

في كل ربيـع، تُزهـر شـجرة السـلام هذه مـن جديد، وبالرغم مـن أنَّنا فشـلنا في وقف هذه الحرب المدمرة في العراق، فإنَّ عزائي هو أنَّنا بذلنا أقصى ما نستطيع.

ومثلمـا كتب أوديسيوس إليتيس عن مقاومة الفاشـية في اليونان: «دعهـم يرجمونا، دعهم يقولوا إنَّنا نسير ورؤوسنا شامخة في السماء، هؤلاء يا صديقي لم يعرفوا قط بأي حجارة، بأي دماء، بأي حديد، بأي نار نحن نبني ونحلم ونغني» [619].

قبـل خمسـة أيـام من تنصيب الرئيس باراك أوباما، أسـقطت وزارة العـدل التهم جميعها المُوجَّهة إلى سوزان ليندا ور [627]؛ إذ لم يتمكنوا طوال خمس سنوات من إدانتها بأي جريمة، ولم تتوقف قط عن المطالبة بتقديمها إلى المحاكمة.

obeikan.com